مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 30، جانفي 2022، ص - ص: 1153 – 1162
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

أخلاقيات البحث العلمي - ابن الهيثم أنموذجا

Ethics of Scientific Research- Alhazen As Example

د/ شريف الدين بن دوبه
كلية العلوم الاجتماعية- جامعة سعيدة
charif.bendouba@univ-saida.dz

تاريخ الإرسال: 2020/12/18 تاريخ القبول: 2021/06/16

الملخص:
من المسلمات الرئيسة في المخيال البشري القول بأن العلم منظومة نظرية مجردة متعالية على الواقع، والدليل على ذلك تجرد الباحث العلمي في المحطة الأولى من البحث من كل قيد ثقافي مشروط، وتحرره من كل نزوع مصلحي سواء كان فرديا أو جماعيا، وانطلاقا من هذه المسلمات المتواترة اعتقد البعض أن الالتزام بقيم أخلاقية أو التزام بقيم المجتمع الذي ينتمي إليه الباحث، وهو ما قامت عليه الأخلاقيات الجديدة. ولكن النظر إلى مقاصد العلم والتقنية يؤكد ضرورة التقيد بالقيم الأخلاقية، فالبحث الذي يتمرّد على منظومة القيم لا يمكن التحكم في نتائجه مستقبلا، وفي التراث العلمي الإسلامي نماذج عديدة تؤكد على ضرورة الالتزام بالقيم الأخلاقية، ومن بين هذه النماذج الحسن ابن الهيثم، الذي اكتشفنا من خلاله أدبيات البحث العلمي، وضوابطه الأخلاقية.
الكلمات المفتاحية: البحث العلمي؛ الحقيقة؛ القيم الأخلاقية؛ الفضيلة؛ الموضوعية؛ ابن الهيثم.

Abstract:
Scientific research is a method followed by man to know the facts that control the natural phenomena and believes a lot that scientific research is not bound to abide by moral values and this is what we find the opposite in the history of science Al-Hasan Ibn al-Haytham, for example, présents in his research examples of the true scholar, he never departs from ethics.
Key words: Ethics; Research; Virtue; Truth; Alhazen.

مقدمة:

تطرح الموضوعية في المنهج العلمي بعيدا عن المجال الأخلاقي إشكالات نظرية وإجرائية أمام الباحث، إذ نلحظ محايثة قيمية للأحكام والمعارف في عدّة مستويات قبلية تارة، وبعْدية تارة أخرى، والمعارف التي تتأسس على مرجعية قيمية في المستوى القبلي هي المعرفة المتعلّقة بالظواهر الإنسانية، والتي تحتلّ الأخلاق فيها قمة الهرم المعرفي، أمّا البحث في الطبيعة فالبعد القيمي لاحق، ولازم، إذ يلاحظ عموما في النتائج والاستتباعات التي يقتضيها التوظيف الإنساني للنتائج العلمية، كما تكون ثقافة الباحث، بشِّقّيها الذاتي والموضوعي معلماً رئيسا في توجيه مسار البحث، وتجاوز المكّونات الفردية للمفاهيم والآليات التي يعتمدها الباحث أمر مستحيل، فمعايشة البحث بعيدا عن الحصيلة المعرفية والمنهجية للفرد مسألة تضعنا في دور أبدي.

ولذا نجد التفرُّد الذي منحه الإنسان لحقل المناهج في العلوم الطبيعية عموما والإنسانية خصوصا له ما يبرِّره، ولكن ما نريد الإشارة إليه في هذه الدراسة فكرة الأنموذج الذي يمارس سلطة قاهرة تحاكي العصاب القهري على الباحثين في حقل المنهجية، الأنموذج العلمي الذي أصبح في المخيال العلمي مسيح

المستضعفين من أصحاب الحقول المعرفية التي تعايش العوائق بالأصالة مثل الدراسات الإنسانية بشكل أدق.

ولكن القراءة المتأنّية للمنهج العلمي تكشف عن التداخل القائم بين منهجية البحث في الطبيعة والضوابط الأخلاقية، فالفصل بين المنهج العلمي والأخلاق فصل تعسُّفي، يسقط العلوم في متاهات موضوعية، ومنهجية، وقيمية. وقد حرّكنا إلى دراسة هذه الحيثية في المناهج، لمّا لاحظناه من اهتمام مناهج البحث العلمي بالمراحل، والخطوات الإجرائية المنتجة للنظام المعرفي، والقوانين العلمية، دون التوقف عند الخصال الأخلاقية التي تشترطها الحقيقة الموضوعية في الباحث، وفي البحث، وغياب هذا المنحى في البحث عند علماء الغرب له ما يبرره، وذلك لطبيعة التوجُّه البراغماتي الذي يحكم الرؤية الثقافية، والسياسية للمجتمع الغربي.

أمّا التوجه الثقافي لعلماء الإسلام في مسار البحث العلمي، فمقيد بالضوابط والالتزامات الأخلاقية التي تمليها عليه ثقافته، وعقيدته التي تقوم على الرحمة بدلالتها العامة، وعلى إكمال المكارم الأخلاقية، والتي تتِّم بها النعمة الإلهية.

وسنقف عند شخصية العالم الإسلامي الحسن ابن الهيثم الذي بلغت شهرته الآفاق، حيث طرق حقولا في المعرفة أثبت الراهن أهميتها الحضارية في تقدُّم الأمم، وهي المباحث التجريبية التي أصبحت بالنسبة للعلوم الإنسانية نموذجا تحتذي به في الدقة، والصرامة العلمية، وهي علم الفلك، ويعود الفضل في معرفة الحسن بالهيثم إلى العالم المصري مصطفى نظيف.

1- الحسن ابن الهيثم:

ولد أبو علي محمد بن الحسن البصري المعروف بابن الهيثم المعروف عند الغرب بـ "El Hazan في البصرة عام 354هـ 965 م، ثم انتقل إلى مصر وأقام في القاهرة حتى وفاته سنة 430هـ/1039 م".

ترك ابن الهيثم مؤلفات عدة في مجالات مختلفة، يغلب عليها المنحى العلمي الطبيعي، والرياضي، إذ "ألّف في الفلك ثمانين كتابا ورسالة، وقد عرض في هذه الكتب والرسائل القيمة عملية سير الكواكب والقمر والأجرام السماوية وأبعادها... وهو أول من شرح تركيب العين، وبيّن أجزاؤها بالرسوم، وسماها بأسماء تطلق عليها حتى الآن كالشبكية، والقرنية، والسائل الزجاجي، والسائل المائي... وله بحوث في تكبير العدسات، مهدت لاستعمال العدسات في إصلاح عيوب العين... وقد بحث في المعادلات التكعيبية، وحلّها بواسطة قطوع المخروط... وفي الضوء وانكساره..."[1].

الحسن ابن الهيثم مدرسة علمية، وأرض خصبة لم تستثمر بعد، والحقائق العلمية المتضمنة في كتبه، لازالت تنتظر الباحثين من العرب والمسلمين، فما نعرفه عنه لا يمثِّل إلا غيضا من فيض، فموقعه في علم البصريات في الفترة الراهنة، يبقى جليا، وله أعمال جديرةٌ بالذكر في مجال علم المثلثات، وبخاصة تطبيق ما يسمَّى شكلَ ظل التمام في المثلثات الكروية على المثلث الكروي لسطح الأرض، وبذلك فقد سبق ابنُ الهيثم - على رأي تروبفكه Tropfke فيته viete الذي جدَّد تطويره، ويُعزى إليه أيضا رسالة وُجدت ترجمتها باللغة اللاتينية بعنوان De"cre pusculis، وهي استخراج ارتفاع طبقة الهواء الجو باستخدام علم المثلثات، كان لها - منذ طباعتها في ليزابون lissabon عام 949هـ/1542م - تأثيرٌ عظيم على الغرب، فابن الهيثم في هذه الرسالة يُعَد - كما يذكر- schramm أول فيزيائي على الإطلاق قام بأول خطوة في إدراك مفهوم الجو بالمعنى الفيزيائي [2].

والذي دفعنا إلى انتقاء ابن الهيثم في هذه الدراسة وجود ملامح الروح العلمية في شكلها المتكامل عنده، فالمنهج العلمي الذي نلحظه في أعماله لا يحتاج إلى استنباط أو تخمين، فهو بارز للعيان بشكل صارخ، وتقدُّمه على فلاسفة الغرب في تأسيس المنهج العلمي لا ينفيه إلا جاحد، وقد اجتهد الأستاذ مصطفى نظيف في بيان تلك المكانة العلمية من خلال مقارنته بالفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون، فقواعد الاستقراء التي قدمها بيكون، تحاكي بشكل دقيق القواعد التي تضمنها المنهج عند ابن الهيثم.

2- منهج ابن الهيثم:

يضعنا الحديث عن المنهج، والمنهجية أمام إمكانات معرفية مفتوحة، حيث اضطر العلماء إلى تأسيس علم قائم بذاته يهتم بمسائل، وفنون هذا المجال، فهو مجموعة من الخطوات الضرورية، واللازمة لأي بحث علمي، وقد عرف الفكر البشري عبر تاريخه الطويل منهجين رئيسيين، تفرعت عنهما منهجيات عديدة، وهما المنهج العقلي، والمنهج التجريبي.

ولكن الطبيعة البشرية للباحث تقف أمام الحقيقة الموضوعية بالمرصاد، وتأثير، وتوجيه الإيديولوجيا للبحث العلمي دليل على ذلك، حيث نلمس في الأنساق الفلسفية تزمتا، ودوجمائية في الاعتقاد بصدقية النتائج، والأحكام عند أتباع هذه المدارس، فالتسليم بمنهج دون الآخر، والنظر بعين القيمة إلى المناهج أساء للبحث، وساهم في تخلُّف الإنسان، فالعقل لا يلغي التجربة، وليس بإمكان التجربة الاستغناء عن العقل، وهذا ما سنلاحظه عند ابن الهيثم فالمنهج عنده بناء بين العقل والتجربة، والنص التالي يشرح ذلك: "ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس ثم ونترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب، مع انتقاد المقدمات، والتحفظ في النتائج"[3].

ويقر ابن الهيثم بوجوب انتهاج الملاحظة الاستقرائية في تحديد، وتعيين الظواهر المدروسة، والملاحظة عند ابن الهيثم تقوم على إحصاء دقيق لحيثيات الظاهرة، والذي يتم عبر لحظة التصنيف، والتي من خلالها تقوم بتمييز الخواص الجزئية، من الخواص الرئيسة، والتي تقع موقع الشبهة في البحث العلمي، وهي التي أوقعت المتقدمين في البحث في موقع الاختلاف، يقول ابن الهيثم: "إن المتقدمين من أهل النظر قد انعموا البحث عن كيفية إحساس البصر واعملوا فيه أفكارهم... وانتهوا منه إلى الذي وصل النظر إليه ووقفوا منه على ما وقفهم البحث... ومع هذه الحال فآراؤهم في حقيقة الإبصار مختلفة، ومذاهبهم في هيئة الإحساس غير متفقة فالحيرة متوجهة، واليقين متعذر، والمطلوب غير موثوق بالوصول إليه وما أوسع العذر مع جميع ذلك، في التباس الحق وأوضح الحجة في تعذر اليقين فالحقائق غامضة والغايات خفية والشبهات كثيرة..".

والسمة الإبداعية في نسق ابن الهيثم، والتي نعتقد في إمكانية اعتبارها أرضية يستمد منها الباحث المعاصر أدبيات، ومحطات منهجية تسمح له ببلوغ حقائق الأشياء، هي آليات بناء الحادثة العلمية عند ابن الهيثم، والتي تمكّن من خلالها في بوتقة المنهج العقلي، والتجريبي في صورة تركيبية جديدة، يصعب الفصل فيها انطولوجيا بين التجربة والعقل، وفي محلّ الشاهد، نستأنس بالنص التالي لابن الهيثم: "ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب، مع انتقاد المقدمات، والتحفظ في النتائج"[4].

وابن الهيثم لا يعتمد على الاعتبار فحسب، كما يرى مصطفى نظيف بل يعتمد عليه أيضا في إثبات النتائج التي تستنبط بالقياس بعد ذلك من تلك القاعدة أو القوانين، والأمثلة كثيرة قد وردت في مناسباتها في مواضع مختلفة من كتاب المناظر"[5].

كما أن المحايثة بين الأخلاق والبحث العلمي عنده تعكس الأصالة الأخلاقية في المعرفة العلمية عند علماء الإسلام، فأخلاق بيكون لا تحتاج إلى تعليق، وقراءة شخصيته في التاريخ قد تسقط من مقامه العلمي عند الباحث، فالسمة الأساس في البحث العلمي عند المسلمين هي الحضور الأخلاقي في شتى حقول البحث، وهي ما تعرف حاليا بالأخلاقيات التطبيقية، الأخلاق المتخصِّصة في حقل معين الأخلاق الجهوية، مثل أخلاقيات البحث العلمي، فالتدبُّر في نصوص ابن الهيثم يكشف عن مبادئ، وأبجديات هذا التخصص.

3- أخلاقيات المنهج:

يعتقد الكثير من الباحثين أن العبرة بالنتائج وفيها، ومبرِّر ذلك واضح للعيان، إذ تقع المصلحة في الطبيعة البشرية موقع الأصل، والمبدأ. والحاجة أمُّ الاختراع مسلّمات أصبحت بالتراكم، ومن خلال التواتر الوجداني، والاجتماعي حقيقة غير قابلة للبرهنة، بل تبنى المسلمات والنتائج من خلالها، ولكنّ القراءة المتأنِّية للمعنى المحمول في العبارة تكشف عن مستوى الأشكلة التي تستبطنها الدلالة، والتعارض القائم بين الفلاسفة حول مشروعية النظرة البراغمائية، وصدقيتها، وليس القصد في البحث مناقشة الموقف الذرائعي، بل هو بغرض الاستئناس في بيان الاختلاف التنظيري في التأسيس.

ولكن الملابسات التي ترافق النظرة العملية للأشياء، من محدودية، ونسبية، وذاتية، تنتقل إلى الباحث كلازمة فكرية، فيصبح مقيَّداً بحاجاته الشخصية، أو الاجتماعية، وهو الذي يسمح للسلطة في استثمار النخبة العلمية، وهذا ما نلاحظه في تبعية العلماء للمؤسسة السياسية عموما، والعسكرية خصوصا.

وعليه فإنّنا نجد في الموقف المتعالي عن مؤشِّرات المصلحة والغائية بعضا من الصدقية، حيث تتجلى الأخلاقية في أعلى صورها في تقديس الحقيقة لذات الحقيقة.

تطرح عبارة "العلم لا يفكر في ذاته " إشكالات أمام الباحث في فلسفة العلوم، وتاريخ العلم، إذ استشف البعض منها وجود مفارقة بين البحث العلمي، والبحث فيه، أي القراءة الخارجية، والنظرية للعلم، والدلالة التي تستبطنها الابستومولوجيا تفيد، وتقر بالعلاقة الخارجية بين العلمين، أو المعرفتين، فكانت خطابا، وقولا في العلم، افترض نتيجة لذلك استقلالية بين الحقلين، عالم الظواهر، وعالم الفكر: المفاهيم، المناهج، النتائج، وتخصص الباحث كلٌّ في حقله، ولكن الولوج في عالم الفكر الإسلامي يقدِّم لنا نماذج متميزة في البحث العلمي، شخصيات استطاعت ببصرها، وبصيرتها البحث في مجالات بحثية، لم يقدر العلم المعاصر اكتشافها حتى الآن، حيث نلمس في جلِّهم المنحى العلمي التطبيقي، والنظري، والحسن بن الهيثم نموذج حيّ لذلك، وستكون لنا وقفة مع منهجيته العلمية، بعيدا عن اكتشافاته النظرية والتقنية في حقول العلم المتعدّدة.

يقوم المنهج الذي تبناه ابن الهيثم على مجموعة مسلمات أو مصادرات، تتماهى فيها الروح العلمية والروح الأخلاقية، وهي كالتالي:

1- الحق مبدأ المطلب [الحق مطلوب لذاته]: يبدأ ابن الهيثم في كتابه :"الشكوك على بطلميوس[6] بتقرير قواعد، وآليات البحث العلمي، الذي يعبر عنه بالحق، أو الحقيقة، والملاحظ على ابن الهيثم في جميع دراساته، وبحوثه العلمية البدء ببيان المنطلقات الفكرية والمنهجية، والأخلاقية في البحث، في صورة أدبية بليغة:" الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده.. "[7].

تكشف تجربة الحسن ابن الهيثم العلمية عن التقاطع القيمي بين مبدأ البحث، وغايته، فالغايات لا تبرِّر الوسائل عند ابن الهيثم، بل ينبغي أن تكون الأخلاقية عنوانا لكل بحث، وهوية لكل باحث، فطلب الحق لذات الحق واجب وضعي، وشرعي، وانتقاؤه اللفظ (الحق) يفيد الإشارة إلى الذات الإلهية، المتصفة بكل صفات التمام، والكمال، فالحق مطلق، ينتظر النسبي بلوغه، والتوفيق الإلهي للباحث يكمن في تسديده ، ومساعدته في انتهاج الطريق المستقيم لبلوغ الحق، كما ن الحق كلفظ يشير أيضا إلى الصدق المقابل للباطل، وإن كان التقاطع بينهما انطولوجيا إذ يمكن القول أن الوجود الانطولوجي والعيني للحق هو ذات الله سبحانه وتعالى، فالبحث عن حقائق الأشياء، والظواهر، وحقائق الأفكار لا يزيد الباحث إلا قربا من الله تعالى جدّه، ولا نقصد في هذا السياق التفكير عقيديا، أو بتعبير آخر دينية العلم، بل القصد هو بيان العلاقة الوجودية، واللزومية بين العلم والشرع.

الحقيقة مطلبٌ مستقلّ ومتعال عن المحدودية والمشروطية الفردية أو الاجتماعية، فالدافعية نحو الحق جزء من الطبيعة البشرية، أو بتعبير أدقّ تقع من الجبلّة الإنسانية موقع الأصل، ففضولية المعرفة عند الإنسان فطرة إلهية، وهذا يظهر في التساؤلات الفلسفية العميقة التي يطرحها الأطفال خلال مراحلهم الطفولية الأولى، فالباحث الحق هو الطالب للحق، لذات الحق، وليس لتحقيق أغراض ضيقة، وإن كانت هذه المصالح بحساب الجماعة أو البعض من الأفراد ذات قيمة.

يقول الحسن ابن الهيثم في نفس النص: "... ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات، وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس...".

استقراء تاريخ الفكر البشري يكشف أن الحقيقة تندّ عن كلّ تمثُّل انطولوجي لها، وتبقى ممكنة في السعي نحوها، فالحقيقة كما يقول البعض ليست امتلاكا للحقيقة بل السعي إليها، وهي ليست من المعطيات الجاهزة، بل هي منتوج بناء واجتهاد علمي يقوم به الباحث من خلال تفاعل جدلي بين العقل والتجربة، والتسليم بأحد المبادئ دون الآخر لا يوقع الباحث في نهاية المطاف إلاّ في الشبهات، والعوائق المطروحة أمام الباحث هي التي تضفي خاصية الوعورة على الطريق العلمي "... والطريق إليه وعر..".

والحقيقة ملازمة للشبهات، حيث أن معرفة الحق مشروطة بمعرفة الضدّ، والعلم بالشبهة يقع في نفس المستوى الذي توجد فيه الحقيقة، فتعيين الشبهات مدخلا لكشف الغطاء عن الحقائق، فهي بداهة الحسّ، ومخاضه، والحس في اللحظة العلمية مدخل رئيس، لا يمكن تجاوزه أو تخطّيه، وانتقاء ابن الهيثم لحد الشبهة، يحمل الكثير من هذه الدلالات فالحسّ مقدمة ينبغي على الباحث الحذر منها والاعتماد عليها، يقول ابن الهيثم:" ..وما أوسع العذر، مع جميع ذلك، في التباس الحق، وأوضح الحجّة في تعذّر اليقين، فالحقائق غامضة والغايات خفية والشبهات كثيرة والأفهام كدرة والمقاييس مختلفة والمقدمات ملتقطة من الحواس، والحواس التي هي العدة غير مأمونة الغلط، فطريق النظر معفى الأثر... ولذلك تكثر الحيرة عند المباحث اللطيفة تتشتّت الآراء وتتفرّق الظنّون وتختلف النتائج ويتعذّر اليقين..[8] فالحقيقة تبقى مطلباً، وعنوانا لكلّ بحث إنساني.

2- التداخل المعرفي: يشكِّل التقاطع المعرفي بين القضايا الطبيعية، عائقا أمام الدقة العلمية، وليس أمام اكتشاف منظومة العلل الكامنة وراء الظواهر، واللطيف في الأمر أن العالم الإسلامي ابن الهيثم في دراساته العلمية ينبّه الباحث العلمي إلى ضرورة الانتباه، للتقاطعات القائمة بين العلوم، والذي يلزم الباحث التمكن من المعارف، والآليات المنهجية في هذه العلوم، وأهمها الرياضيات، والتي كانت تعرف بالعلوم التعليمية.

تشمل العلوم الرياضية سبعة أقسام فعند القدماء، فلم تكن الرياضيات علم تجريدي بحت، كما يتصور المبتدئ في هذا العلم، بل تمتد إلى مجالات تطبيقية، والتي يتفق على تسميتها بالرياضيات التطبيقية، وسنعتمد التصنيف الذي وضعه الفيلسوف أبي نصر الفارابي، والذي نقتبس منه هذا النص: "علم الحساب، والذي يشمل صنفين علم الحساب التطبيقي الذي يدرس الأعداد بما هي معدودة... والثاني هو علم الحساب النظري الذي يدرس الأعداد مأخوذة في المطلق... الهندسة وهي تطبيقية أو نظرية، علم المنظور أو علم المناظر وباللاتينية De aspectibus ويدرس الأشكال والكميات كما هي موجودة في الخطوط والسطوح والأجسام الصلبة، لكنه هذا العلم يتخصص بالأشكال التي تظهر من خلاله، التي تختلف عما هي في الحقيقة... وعلم الفلك من خلال علمين: علم أمور النجوم، وعلم النجوم الرياضي الذي يدرس الإجرام السماوية وحركاتها ويدرس الكرة الأرضية... وعلم الموسيقى من حيث بنوعيه التطبيقية وموضوعها الإلحان والأنغام المحسوسة، والموسيقى النظرية ..وعلم الأوزان الذي يدرس الكميات القابلة للقياس... وعلم التقنيات (الحيل) وهو علم التطبيق على أجسام طبيعية لكل ما برهنته الرياضيات"[9].

وعند قراءة النص الذي نقتبسه من كتاب المناظر تظهر المعرفة الدقيقة عند ابن الهيثم بالتداخلات، والتقاطعات بين الحقول المعرفية، يقول: "والبحث في هذا المعنى- مع غموضه وصعوبة الطريق إلى معرفة حقيقته- مركب من العلوم الطبيعية والعلوم التعليمية. أما تعلقه بالعلم الطبيعي فلأن الإبصار أحد الحواس، والحواس من الشكل والوضع والعظم والحركة والسكون- وله مع ذلك في نفس الإحساس تخصيص بالسموت المستقيمة – والبحث عن هذه المعاني إنما يكون بالعلوم التعليمية[10].

3- الروح النقدية: يحمل مفهوم النقد محمولات دلالية تختلف مضامينها باختلاف السياق التاريخي واللحظة الفكرية والاهتمامات السوسيوسياسية، فهو شكّ في المعرفة المكتسبة ومراجعة لأساسياتها[11].

ويراد به في اللغة: "نقد الشيء نقدا ليختبره، أو ليميز جيده من رديئه، ويقال نقد الشيء نقدا: أوقع فيه الفساد[12].

وفي الاصطلاح يحمل دلالات متعددة، منها: "يطلق على دراسة إجمالية ترمي إلى إدانة أو دحض عمل ما، وهذا المعنى موجود في الفلسفة"[13]. وقد أخذت مفردة النقد في البحوث التقليدية سياقات ثلاث... بداية استخدمت في إقامة العدالة واستخدمها أرسطو ليحيل إلى القرار القضائي الذي يبت في أمر خصومة ما، ثم تطور مفهوم طبي للمفردة وتعني اللحظة الحرجة في مرحلة المرض، أما في العصر الهليني اكتسبت معنى دراسة النصوص الأدبية[14].

وقد عرف النقد مع الحسن ابن الهيثم مسارا معرفيا، وفلسفيا يحاكي، المعاني المعاصرة التي عرفها مع تقدم المعارف والعلوم، إذ نلمس تقنينا، وضبطا منهجيا، وأخلاقيا عند ابن الهيثم، فالانتقال المنهجي من مقدمة معرفية إلى أخرى ليس اعتباطيا عنده، بل مقيّدا بضوابط منطقية عامة، وأخلاقية مطلقة، وسنحاول في هذه الدراسة هيكلة المنهج النقدي عند ابن الهيثم.

- **الوعي بالقصد:** لا ينبع البحث العلمي من دوافع ذاتية ـ رغبات، وميول بل يتحدّد من خلال إرادة الباحث، التي تكون متجلّية في القصد إلى الفعل أو الترك مع وعي الأسباب الدافعة إليهما عند المريد، فالباحث الحقيقي هو الباحث الذي يدرك حركته، وتطلعاته البحثية، ويكون قادرا على التعاطي معها بشكل موضوعي بعيدا عن كل ذاتية أو تحيز إثني.
- **الحذر من الطبيعة**: من المسلمات الرئيسة في البحث العلمي الاعتقاد في ذاتية الطبيعة الفردية للباحث، وهي عائق أساس أمام بلوغ الحقيقة الموضوعية، والفصل بين الإرادة والتلقائية في الفعل الإرادي أمر

شبه مستحيل، حيث لا يمكن للباحث العلمي تجاوز ذاته أثناء البحث، أو التجرّد كلية من شخصيته الفردية والثقافية، واسترسال الباحث مع طبعه، ومع ذهنيته، ودوافعه المحددة سلفا من خلال محيطه الثقافي، تضعه في ضفة مجانبة، ومقابلة للحقيقة، ويوضح ابن الهيثم هذه الطبيعة في القول التالي:" وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس"، أي أن الطبيعة البشرية ميّالة إلى تقديس العلماء، وهي مسألة تحتاج إلى وقفة، إذ أنه من الواجب احترام العلماء، وإنزالهم منازلهم التي هم أهل لها، ولكن من الواجب علينا أيضا الحذر من خطورة، وتحول هذا الاحترام الواجب إلى تقديس يمنع من استقبال، وتلقي المعارف الجديدة، لأن الحقائق الإنسانية نسبية، وقابلة للتطور، كما أنه العلماء في حد ذاتهم نسبويين، أي محدودين، ومشروطين بظروفهم الثقافية والحضارية، وهذا ما نلمسه في قول ابن الهيثم:" وما عصم الله العلماء من الزلل، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل. ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور، والوجود بخلاف ذلك.

- **التصريح بالهدف**: يضع ابن الهيثم أمام الباحث ضوابط منهجية، وأخلاقية تمكنه من بلوغ الحقيقة، وأهمها تحديد نوعية العلاقة بين المتن العلمي، وبين الباحث، ففهم دلالات النص أو المتن العلمي، وغاياته، لا تمتُّ بصلة إلى الحقيقة، بل هي مجرد مقدمات تكوينية، وأولية، وضرورة، حيث أن الباحث في حقل علمي معين ملزم بالإحاطة بجزئيات الموضوع المدروس، فالتخصص في حقل الطب مثلا يلزم الباحث معرفة النتائج، والنظريات السابقة في الحقل، يقول ابن الهيثم: "... فالناظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه، وجعل غرضه فهم ما ذكروه، وغاية ما أوردوه حصلت الحقائق عنده هي المعاني التي قصدوا لها، والغايات التي أشاروا إليها".

ويضع ابن الهيثم ملاحظات منهجية، وخصال أخلاقية يشترطها في الباحث عن الحقيقة الموضوعية، فالقراءة التشخيصية للمتون العلمية، والنظريات السابقة لا تمتّ إلى البحث العلمي بصلة، لأنها لن تتعدّى حدود المعاني التي عمل عليها هؤلاء القدماء، فمراحل النقد، وضوابطه الأخلاقية عند ابن الهيثم تظهر فيما يلي:

- **الموقف**: الموقف العلمي أو الفلسفي ليس وضعية جسمية يتخذها الباحث بل هي جملة من المقومات، والشروط المنهجية، والأخلاقية، وهو المتضمن في العبارة التالية: "المتوقِّف فيما يفهمه عنهم"، فما نحصل عليه من القراءة الأولية ليس مبرِّرا لادعاء ملكية وحيازة للحقيقة، بل هو مجرّد بدايات ظنية تحتاج إلى محطّات فكرية دقيقة تمنح البحث قيمة الدقة واليقين.

فالموقف العلمي امتلاك لجملة من الشروط والخصال العلمية والأخلاقية، تبدأ من القصدية، أي من تحديد الهدف الذي نروم الوصول إليه، ومن خلال المحطات اللازمة، من إتباع، وانتهاج للاستقراء القائم على الإحصاء والتصنيف، فالموقف لا يكون عند ابن الهيثم نظريا بحتا، بل تتكامل فيها قنوات المعرفة العقل والتجربة.

- **الموضوعية:** الموضوعية Objectivité كلمة مشتقة من موضوع، وهو كل ما يقابل الذات، فهي صفة شرطية، وقيمة مطلوبة في الباحث العلمي، تتطلب منه التعامل مع ذاته، وأفكاره، وثقافته، بشكل مجرّد، عادلا في إصدار الأحكام ككلّ، فالحكم الإنساني لا يقل خطورة عن الحكم العلمي، فالعدل مسألة وجوبية، يقول :" فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين، المسترسل مع طبعه في حسن الظنّ بهم، بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم، المتوقف فيما يفهمه عنهم، المتبع الحجة والبرهان، لا قول القائل الذي هو إنسان، المخصوص في جبلَّته بضروب الخلل والنقصان".

- **نقد الإيحاء الأول:** الإيحاء الأول هو الفكرة الأولى التي تتبادر إلى الذهن عند ملاحظة الظاهرة، أو عند قراءة النتائج العلمية، فقابلية الباحث لتقبل، وإضفاء الصدقية على فكرة قد يكون نتاج حتميات نفسية، وثقافية تعمل في وعي الباحث بطريقة لاشعورية، ويعبر عن ذلك ابن الهيثم بالظن، يقول: "طالب الحق هو المتهم لظنّه فيهم"، فمن الواجب على الباحث فحص، وتمحيص الفكرة الأولية التي تدخل في دائرة الظن، وليس في فضاء اليقين.
- **الحياد:** يقول ابن الهيثم: "والواجب على الناظر في كتب العلوم، إذا كان غرضه معرفة الحقائق، أن يجعل نفسه خصما لكل ما ينظر فيه، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه، ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه، ويتّهم أيضا نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه، ولا يتسمح فيه. فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق، وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشُّبه"[15].

يحدِّد ابن الهيثم في هذا النص خصال الباحث العلمي، والتي يمكن إجمالها في نقاط التقيد بطلب الحق، والتعامل بعين نقدية مع كل ما هو معطى، وهو الذي نجده مستقبلا عند غاستون باشلار Gaston Bachelard في قوله: "لا يوجد معطى، كل شيء مبني، فالمعطى الجاهز لا يقيم معرفة علمية، بل البحث العلمي يشترط جدلا بين العقل والتجربة، وهو الذي سنلاحظه في المنهج الذي يأخذ به ابن الهيثم.

- **نقد الذات:** يظهر أن القصد من هذا الطلب الحذر من الوقوع في مطبّات النفس، والهوى، فالناقد يبدأ بموضوعية في دراسته، ولكنه قد ينحرف في النهاية، فيتحول نقده للعالم محل لإسقاط لأفكاره، وميوله، وعليه يكون الحذر من النفس واجب، من خلال المراجعة الذاتية للنقد، يقول ابن الهيثم: "ويتّهم أيضا نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه، ولا يتسمح فيه". فالعلماء كما قيل يفيدون العلم في النصف الأول من حياتهم، ويسيئون إليه في النصف الأخير.
- **دراسة المتون والحواشي:** من خلال تتبّع المعنى الذي تحمله المتون والحواشي، نجد تقاطعا بين المتن والمصدر، وبين الحواشي والمراجع، فيتكون الدلالة التي قصد إليها ابن الهيثم هي وجوب دراسة النظرية من خلال مصادرها وينابيعها الرئيسة، كما يجب على الباحث أيضا دراسة المراجع، والدراسات التي عملت على قراءة تلك النظرية، حيث تساهم الدراسات في بيان بعض الحقائق، والعبارات، فالباحث غير قادر على فك رموز النظريات لوحده، وتبقى الحقيقة مطلبا أمام الباحث، ومعرفة اجتهادات المتقدمين لا تعني امتلاك الحقيقة، وفي النص التالي يبين ابن الهيثم محدودية البحث، والنتائج، يقول ابن الهيثم: "إنّ المتقدمين من أهل النظر قد انعموا البحث عن كيفية إحساس البصر وأعملوا فيه، أفكارهم وبذلوا فيه اجتهادهم ثم انتهوا منه إلى الحد الذي وصل النظر إليه، ووقفوا منه على ما وقفهم البحث والتمييز عليه".
- **إحصاء الشكوك:** عمل ابن الهيثم، في كتابه الشكوك على ضبط، وإحصاء الأخطاء، أو مواطن اللبس في كتابات بطلميوس، فتحديد إطار للنظر، والبحث مسألة منهجية، ولازمة في البحث العلمي المعاصر، وهو ما يعرف في الحقل العلمي بمبدأ العزل، ويعني عزل الظواهر المدروسة عن الظواهر المتداخلة معها في مبدأ العلية، أو في مستوى الوجود، يقول ابن الهيثم: "ولسنا نذكر في هذه المقالة جميع الشكوك التي في كتبه، وإنما نذكر المواضع المتناقضة، والأغلاط التي لا تأوُّل فيها فقط، التي متى لم يخرّج لها وجوه صحيحة، وهيئات مطردة، انتقضت المعاني التي قررها، وحركات الكواكب التي حصلها، فأما بقية الشكوك فإنها غير متناقضة للأصول المقررة، وهي تنحل من غير أن ينتقض شيء من الأصول ولا يتغير والله المعين لنا على جميع ذلك بمشيئته"[16].

وقد تناول ابن الهيثم في مقالة الشكوك بالنقد ثلاثة مؤلّفات للرياضي والفلكي اليوناني بطلميوس الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي، وهي: المجسطي والاقتصاص والمناظر. والملاحظ أن الشكوك التي ركز عليها ابن الهيثم، تتصف بسمات محدّدة، وهي الشكوك التي لا تصمد أمام مبادئ العقل، والتي لا يمكن إيجاد مبررات منطقية لها، ويبدو أن ابن الهيثم، اجتهد قدر المستطاع في هضم هذه الأخطاء، ولكنه لم يجد سبيلا في ذلك، فقرر بعد ذلك البدء في بيان أوجه الخلل فيها.

وقد تمثّلت الاعتراضات التي أخذها ابن الهيثم على بطلميوس في سبعة إشكالات: "إشكال يتعلق بالسرعة والبطء والتوسط وهي الحركات التي لا تليق بالفلكيات البسيطة... وإشكال يتعلق بمظاهر بعض الكواكب، إذ أن أحجامها تبدو في بعض الأحيان أعظم من أحجامها في أحيانا أخرى، وإشكال الثالث يتعلّق بظاهرات الوقوف والرجوع والاستقامة للكواكب، وهي ظاهرة تتناقض مع الانتظام المفترض لحركات الكواكب..."[17].

- **لغة النقد:** تبدأ معرفة الكاتب من الكتاب، والكتاب من العنوان، وانتقاء الحسن ابن الهيثم لكلمة الشكوك تنبئ عن مقام ابن الهيثم الأخلاقي حيث لم يستعمل عبارات تقدح، وتنقص من المقام العلمي للعالم، مثل: بطلميوس في الميزان، أو تدليس حجج بطلميوس، وعبارات من هذا القبيل: الرد، النقض، التهافت، والتي ورثها الفكر العربي والإسلامي عن ثقافة التعالي التي كان الأجداد يؤمنون بها، والتي تحولت إلى شعور بالنقص والقزمية، إذ نجد ابن الهيثم يصف انتقاداته لبطلميوس بالشكوك، أي إنها اعتراضات تحتمل الصدق، وتحتمل الخطأ.

واللطيف في الأمر هو أن اللفظ اليوناني aporia الذي يقابل لفظ الشك كما هو مستدل عليه في مثل هذا الموضع يؤدي معنى الضيق والعسر، والورطة والحيرة، وفي مجال الجدال الفلسفي يدل على الصعوبة، والمشكلة، والمعضلة، واقتران لفظ الشك أو مقابله اليوناني بالحرف (على) pros يقربه من معنى الاعتراض والنقد، فغرض ابن الهيثم في هذه المقالة إثارة الشكوك أو الاعتراضات على مواضع مشكلة تورط فيها بطلميوس في مؤلّفاته الرئيسية، وليس القصد التقزيم.

ومن الواجبات الأخلاقية للباحث عند ابن الهيثم احترام وتبجيل العلماء، كشخصيات بشرية اجتهدت حسب الوسع في بلوغ الحقيقة العلمية، وليس كحقائق مطلقة، ونلاحظ في كتابه الشكوك أدبا راقيا في التعامل مع بطلميوس، إذ يقول: "ولما نظرنا في كتب الرجل المشهور بالفضيلة، المتفنِّن في المعاني الرياضية، المشار إليه في العلوم الحقيقية، أعني بطلميوس القلوذي، وجدنا فيها علوما كثيرة، ومعاني غزيرة، كثيرة الفوائد، عظيمة المنافع..."[18].

وتكون الفضيلة العنوان الأول الذي يمنح الباحث الاحترام والتقدير، فحسن الخلق مبررا كافيا على الاحترام، وإذا تدرّج الباحث في امتلاكه المنظومة القيمية زادت مكانته في الارتقاء، ومقامه في الارتفاع، فهو ضليع في فن الرياضيات، وسيد في الفلسفة العلوم الحقيقية، والإشادة بأهميّة العالم تحمل كثيرا من الدلالات للباحث في هذا العصر، وعلينا تقدير واحترام علمائنا، فعلماؤنا ثروتنا، وتراثنا، وتاريخنا، ولكن العبرة التي نستشفها من عند ابن الهيثم هي الاعتبار من العبر، وليس تكديس العبر.

يقول ابن الهيثم:" ولما خصمناها وميزناها، وتحرينا إنصافه وإنصاف الحق منه، وجدنا فيها مواضع مشبهة، وألفاظا بشعة، ومعاني متناقضة، إلا أنها يسيرة في جنب ما أصاب فيه من المعاني الصحيحة..."[19].

نلاحظ في هذه العبارة أدب الناقد النموذجي، العبارة الأولى تفيد مرحلة النقد والفحص التي أخضعت فيها نتائج بطلميوس ونظرياته من طرف ابن الهيثم، والتي اكتشف من خلاله وجود خلل في البناء المعرفي

لنظرية بطلميوس، وهو متعلّق بالمفاهيم، وبالمصطلحات أيضا. وفي العبارة الثانية بيان المقام المعرفي للعالم بطلميوس أخلاقيا، يقول: "إلا أنها يسيرة في جنب ما أصاب فيه من المعاني الصحيحة..."[20] فالنقد، والكشف عن الأخطاء لا ينقص من مكانة بطلميوس العلمية، فالأخطاء بالقياس إلى المعاني التي كشف للإنسانية عنها تكون يسيرة، ومقبولة.

ولكن الحقّ كمطلب يلزمنا دوما أن نضعه فوق كل اعتبار، فالحق فوق كل إثنية، ومتعال على كل عقيدة، ولذا يحدد ابن الهيثم هدفه من دراسة بطلميوس النقدية، فيقول: "فرأينا أن الإمساك عنها هضما للحق، وتعديا عليه، وظلما لمن ينظر بعدنا في كتبه في سترنا ذلك عنه. ووجدنا أولى الأمور ذكر هذه المواضع، وإظهارها لمن يجتهد من بعد ذلك في سد خللها، وتصحيح معانيها، بكل وجه يمكن أن يؤدّي إلى حقائقها"[21].

خاتمة:

البحث عن الحقيقة مدخل ومقدمة للكمال الإنساني، فهو مطلب نظري يمنح الملكات قابلية التحقق، وأبجديات المنهج والمنهجية تحدد الطريق السليم لتجاوز العقبات النفسية والمنطقية التي تقف حجر عثرة أمام الباحث والعاشق للحكمة، ويعتقد الكثير أن الجانب الموضوعي في البحث هو الذي يقدم الضمان الكفيل بإدراك الحقيقة في حين أن الفضاء الأخلاقي هو الأصل في البحث، لأن التقوقع في الدوائر المعرفية بعيدا عن حقل الأفعال يبعد الإنسان عن الغايات الرئيسة التي وجد من أجلها، والحسن ابن الهيثم من خلال أطروحته العلمية يكشف عن مقاصد الشريعة الإسلامية التي تقوم على الأخلاق في المبدأ والغاية.

الهوامش:

[1]- عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي، ابن الهيثم، مؤسسة المعارف بيروت، ط 1، 1993، ص ص 80-81.

[2]- عبد الله حجازي، مقال تاريخ المثلثات عند العرب، تاريخ الإضافة 29/12/2012، الرابط:
http://www.alukah.net/library/0/48388/#ixzz3HcbyCZmL

[3]- الحسن ابن الهيثم، كتاب المناظر، تحقيق عبد الحميد صبرى، المجلس الوطني للثقافة والآداب مصر، الطبعة الأولى، 1983، ص 61.

[4]- الحسن ابن الهيثم، كتاب المناظر، تحقيق عبد الحميد صبرى، المجلس الوطني للثقافة والآداب مصر، الطبعة الأولى، 1983، ص 61.

[5]- مصطفى نظيف، الحسن بن الهيثم وبحوثه البصرية، ج1، مطبعة نوري القاهرة، 1942، ص 324.

[6]- بطليموس هو كلاوديوس بطليموس (بين 83- 161م) أشهر الفلكيين الإغريق، وهو فلكي ورياضي وفيلسوف، ويعرف ببطليموس الحكيم، اختلف في نسبته إلى اليونان أو مصر، أشهر كتبه المجسطي في الفلك.

[7]- الحسن ابن لهيثم، الشكوك على بطلميوس، تحقيق عبد الحميد صبره، ونبيل الشهابي، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 1971، ص 3.

[8]- ابن الهيثم، كتاب المناظر، تحقيق عبد الحميد صبرى، المجلس الوطني للثقافة والآداب مصر، الطبعة الأولى، 1983، ص 62.

[9]- رشدي راشد، وآخرون، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج 3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط 2، 2005، ص ص 1291-1292.

[10]- ابن الهيثم، كتاب المناظر، تحقيق عبد الحميد صبرى، مرجع سابق ص 63.

[11]- افاييه، محمد نور الدين، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس، بيروت، ط:2 1998، ص 28.

[12]- مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، مطبعة باقري، إيران، الطبعة الثاني، ص 944.

[13]- لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، م1 ط: 11996، ص 238.

[14]- الرويلي، ميجان، وآخرون، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، لبنان، الطبعة الثانية، 2002، ص301.

[15]- الحسن ابن لهيثم، الشكوك على بطلميوس، المرجع نفسه ص 4.

[16]- المرجع نفسه، ص 5.

[17]- للمزيد أنظر: رشدي راشد، وآخرون، موسوعة تاريخ العلوم العربية، مرجع سابق، ص 98.

[18]- الحسن ابن لهيثم، الشكوك على بطلميوس، المرجع نفسه، ص 4.

[19]- المرجع نفسه، ص 4.

[20]- المرجع نفسه، ص 4.

[21]- الحسن ابن لهيثم، الشكوك على بطلميوس، المرجع نفسه، ص 4.